الشيخ محمد رضا النحوي (١)

المتوفى سنة ١٢٢٦ هـ

١

هو الشيخ محمد رضا بن الشيخ احمد بن حسن الحلي النجفي الشاعر الشهير في عصره ، ويعرف بـ « الشاعر » .

ولادته في الحلة وهي موطن ابيه وجده ومعهد ثقافته وتنوره ، واحدى المرابع العربية التي تغرس في نفس وليدها الطموح العربي والذكاء الفطري الذي اختص به العربي من بين الامم .

لقد قصر التاريخ في ضبط ولادة شاعرنا النحوي كما قصر في ضبط ولادة ابيه من قبله ، غير انه افهمنا انه نشأ في مسقط رأسه ، ولما بلغ أشده إنتقل الى النجف معهد العلوم ومنتدى الآداب فتلمذ على أساطينها في الفقه ، وجهابذتها في الاصول ، واعلامها في الأدب . كالشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء والسيد مهدي بحر العلوم والسيد صادق الفحام ولا تنس ما كان لمدرسة أبيه عليه من حسن التوجيه وتوليد الاستعداد عدا ناموس الوراثه الذي اقرّه علماء النفس ، فقد إرتأى ابوه ان يبقى له من بعده خير ذكرى تمثله لتلك المجالس التي كانت مثار الجدل العلمي والمناظرات الأدبية ، وحرص ان يكون نائبه ووليده خير سباق يؤنسه عند ابقاء القوم خلفه ان هو حاز على الشرط وبلغ الهدف .

والمترجم له كان وفق تصور ابيه فقد اجتاز الحد الذي رسمه له أبوه عند تلقينه وتوجيهه وفاقه في كافة الحلبات ولعل المؤيد لذلك ماستقرأه من شعره ، ولكن يجد ربان نثبت لك لمحة من عناية أبيه له في التربيه الأدبيه والتزامه بمسايرته ومناجاته في آناء الليل واطراف النهار ، واطلاعه على المحكم من الفن ، آناً من طريق التطبيق والاختبار وحيناً من طريق التلقين والتفهيم . من ذلك انه مر على غلام نجار صبيح المحيا واضح الطلعه رشيق القـــد وهو يصنع سفينة فراق الشيخ حركاته وانعطافاته التي سايرت فنه مادعت الى ايقافه وتأمله في ذلك الجمال الساحر وكان معه ولده المترجم له وهو إذ ذاك شاب فرغب ان لا تفوته هذه الصورة الشعرية . فقال له اي بني اجز ما اقول : واشفع الصدور بالأعجاز فقال الوالد :

ورب ظبي مروع ... يروع بالهجر روعي
ذل له الخشب طوعاً ... كذاتي وخضوعي
فقلت مولاي مادا ... تبغي بهذا الصنيع
فقال ابني سفينا ... لرحلتي ونزوعي
فقلت دونك فاصنع ... سفينة من ضلوعي
شراعها من فؤادي ... ومجرها من دموعي

واليك إرشاداته الادبيه له ، وتفهيمه بعض الفضائل باسلوب يلائم ذوق المترجم له اذ ذاك حيث البسه بردة من فن بديع قوله :

بني استقم فالعود تنمى عروقه ... قويما ويغشاه اذا مالتوى التوى
ولا تطع الحرص المذل وكن فتى ... اذا التهبت احشاءه بالطوى طوى
وعاصي الهوى المردي فكم من محلق ... الى النجم لما أن اطاع الهوى هوى
واسعف ذوي علم فيقبح أن ترى ... على من الى الحر الاباب إنضوا إنضوا
وحافظ على من لا يخون اذ انبا ... زمان ولا يرعى اذا مالنوا نوا
وان تقتدر فاصفح فلا خير في إمرء ... اذا إعتلقت أظفاره بالشوى شوى
واياك والشكوى فلم ير دونها
شكى بل اخو الجهل الذي ما رعوى إرعوى

تطرق المترجم له في شعره صوراً وغامر في نظمه بأشواط بعيده كانت مثار إعجاب إصدقائه واعضاء نادي « معركة الخميس » فاندفعوا يعربون عن اعجابهم وتقديرهم مخضعين كل تزمت وعظمة تلحق نفس الشاعر المغرور خاضعين الى تقدمه وتفوقه .

الرضا النحوي : طموح النفس واسع الخيال ، استعبد الرصين من القول ، وامتلك البليغ من الكلام وانحدر في ميادين الأدب لا يلوي على شيء ، قاصداً موضعاً ليس بمقدور احد ان يفكر بالوصول اليه ، وربما شعر الغير ببعض الصور التي يرعاها ، ولكن تقعده قابليته المحدودة عن مجاراته .

(١) مستل من كتاب « أدب العراق في القرون المظلمة » لصاحب « البيان »

إمتاز عن معاصريه من الشعراء بما اختزنه من القابليات التي تضافرت على تربيته وصقله فأودعت فيه قوة النظم ومتانة التركيب وجزالة المعنى والرقة المشفوعة بالبداوة العربية أو بروح الفطرة . وهذه العوامل بعد أن حققت تراها ظاهرة جليه في شعر النحوي، وولعه الزائد في التخميس يكشف لنا عن ذلك ويعطينا صورة صادقة عن عمقه وامتداد نظره ونفوذ خياله في قلب كل شاعر يسمع نتاجه أو يقرأ خواطره فيبعث بتعليقته الأدبيه ويفيض على ذلك المسموع الوان الرقة وجميل الصور المشفوعة بالرقة واللطف ، ولعلك تتصور ان لبعض الشعراء خواطر جياشه تخرج من صميم الواقع ، وتشحذ من قبل الذهن شحذاً يؤدي بالأسماع الى الالتقاف وبالقلوب الى الالتقاط ، وربما تسير كالمثل لتسالم الناس على الاعجاب بها والاكبار لها ، وشاعرنا النحوي يتربص امثال هذه الخواطر التى اجمع معظم الادباء على استحسانها فيقلب جمالها الى جهام ، ورقتها الى خشونه ، ثم يذهب الى المؤمنين بها فيقلب مشاعرهم ويغير من اعجابهم الى الى مايقوله ، ولعل في مسأجلاته مع اعضاء « معركة الخميس» مايفهمك جلياً وهي كثيرة منها نقضه للخاطرة الجميلة التي نظمها صديقه واستاذه السيد صادق الفحام مفتخراً بها على المتنبي احمد ابي الطيب بقوله :

واني نبي الشعر كم لي معجز تجلت به للمبصرين الحقايق .
فدع عنك قول ابن الحسين بمعزل وان هدرت فيهن منه الشقاشق
فكم بين مايأتي به الناس كاذب تنبي ومايأتي به الناس «صادق»

ولا احسب انه يفوتك مافي هذه الابيات من النكتة الجميلة والخاطرة المليحة بين كاذب وهو مفهوم كل متنبي بعد الرسول الاعظم « ص » وصادق وهو اسم الناظم . وهنا جاء النحوي فقلبها الى نقد عليه مما اودى بالفحام ان تندك نفسيته وتضعف تجاه هذا النقض بقوله :

ارى بعض من قد جاوز الحد يدعي نبوة شعر والدعاوى شقاشق
على المتنبي ظل يفخر والذي تأمل لاتخفى عليه الحقايق
فكم مدع فضل النبوة قبله ولا يدعيها بعد احمد [صادق]

فورى باسم احمد وهو المتنبي عن الرسول محمد [ص] وجعل كل نبوة تظهر بعده غير صادق مدعيها ، وقد عرضت لي نكتة في المتنبي آثرت ذكرها ، دونها ابن خلكان في وفياته وهي : ان المعتمد بن عباد تمثل يوماً ببعض شعر المتنبي وكان في مجلسه عبد الجليل بن وهبون الشاعر الاندلسي المعروف فلما فرغ من تمثيله ارتجل قائلا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما تجيد العطايا والنهاب تفتح
لها عجباً بالقريض ولودرى بأنك تروي شعره لتألها

وقد خمس النحوي اكثر القصائد الشهيره التي لم يدر في خلد معظم الشعراء المطبوعين والأفذاذ منهم ان يغامروا في تخميسها والخروج من عبدة التخميس ظافرين بالفوز وحائزين للثناء من قبل معاصريهم ، والنحوي كان أجرأ اولئك الشعراء لارتكازه على مواهبه واعتصامه بخياله، واستانته باحاطته الواسعة في علم اللغة وفهمه لأنواع البديع واتقانه لمقاييس الأدب والادباء ، وقوته على الامتزاج بنفسية كل شاعر يهوى ان يمتزج بروحه وشعره ، فقد خمس المقصورة الشهير للعلامة اللغوي ابن دريد الأزدي ، وحولها من مدح ابن ميكال الى مدح العلامة بحر العلوم وقد اجازه عليها بـ [مائة ليره ذهب عثمانية] باسلوب يجعلك لاتفرق بين متانة الأصل ورصانة التخميس ، وللايضاح نثبت لك مطلع التخميس :

مذكان مالازال يخشى كونه وابيض من وحف القذال جونه
قلت لها والصبر تدعونه اما تري رأسي حاكى لونه
طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقد أخذ هذا التخميس الكبير دوياً هائلا في الاوساط العربية عند الفراغ من نظمه ، ولعناية معاصريه بشعره رأيته قد أثبت في أكثر من مائة كتاب ومجموع مخطوطة كلها في عصر الناظم ، وكان ظهور هذا التخميس قد حفز جماعة من [أعضاء معركة الخميس] ان يقلدوه ويعارضوه غير انهم لم يبلغوا شأوه ، ولم ترتفعوا الى برجه ، وأعرف من الذين خمسوا هذه المقصورة من رجال عصره جماعة منهم الشيخ موسى ابن الشيخ شريف آل محي الدين واليك مطلع تخميسه قوله :

أوهى القوى كتم الهوى وصونه وخانه يا [مي] فيك عونه
يامن رأى راسي شمع جونه أما تري رأسي حاكى لونه
طرة صبح تحت أذيال الدجى

والنحوي خمس القصيدة الشهيرة بـ [البردة] لشرف

الدين ابي عبد الله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري المصري وقد فرغ من تخميسها يوم الثلاثاء ٢٤ رجب سنة ١٢٠٠ هـ ١٧٨٦ م ومطلعها :

مالي اراك حليف الوجد والألم اودى بجسمك ما اودى من الالم
ذا مدمع بالدمع المزن منسجم أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وقد حازت على اعجاب اصدقائه وزملائه من اعضاء «معركة الخميس» فقرضوها بقصائد عامرة منهم(١) السيد صادق الفحام المتوفى ١٢٠٥ هـ ١٧٩١ م مقرضاً ومؤرخاً بقصيدتين الاولى :

رويدك هل ابقيت قولا لقائل وحسبك هل غادرت سحراً لبابل

والثانية مطلعها :

كذا فليكن نظم العقود ولم اخل ينظم من لفظ عقود فريد

٢ ــ السيد محمد بن احمد زيني الحسني البغدادي المتوفى ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م مقرضاً ومؤرخاً بقوله :

آيات حق ارتنا جامع الكلم واعجزت ادباء العرب والعجم
قد نال غاية مطلوب مؤرخها تسميطها معرب عن معجز الكلم

٣ ــ الشيخ علي بن الشيخ محمد حسين زيني العاملي مقرضاً ومؤرخا :

ألحان داود أم ضرب النواقيس
أم روح أرواح جنات الفراديس
ملكتها من نصاب الحسن غايتها فيه فارخت أزكى كل تخميس

٤ ــ الشيخ هادي بن أحمد النحوي شقيق المترجم له مقرضا بقوله :

ذي زبدة الشعر بل ذي نخبة الأدب
حاشا مقالي من زور ومن كذب

٥ ــ السيد ابراهيم بن السيد محمد العطار البغدادي مقرضاً ومؤرخا :

فرائد در ليس تحصى عجائبه وقد بهرت منا العقول غرائبه
تحلى به جيد الزمان فأرخوا فرائد در ليس تحصى عجائبه

٦ ــ الشيخ محمد علي الاعسم المتوفى ١٢١٥ هـ ١٨٠١ م مقرضا ومؤرخا :

فرائد للأديب ابن الأديب ورد شموسها بعد المغيب
ومذ كملت بذي التسميط ارخ فقد كملت بتسميط عجيب

٧ ــ الحاج محمد رضا الازري مقرضا ومؤرخا :

اعقد جمان قد توقد رائقه ام النجم بالآفاق قد عم شارقه
اجل زانها سمط الجمال فأرخوا حبا عنقها عقد تجمل رائقة

ولعل بعض الاعضاء إشتركوا في التقريض كاخوانهم غير اني لم أعثر على شيء من ذلك رغم احاطتي وتوغلي في البحث كالشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء والسيد مهدي بحر العلوم والشيخ مسلم بن عقيل الحصاني والشيخ كاظم الازري والشيخ محسن النحوي شقيق المترجم له . واليك قصيدة له يمدح بها استاده السيد مهدي بحر العلوم عند قدومه من الحج قوله :

اعيد من الحمد المضاعف ما ابدي واهدي الى المهدي من ذلك المهدي
وليس الهدايا قدر ما اهديت له ولكنها تاتي على قدر المهدي
ولو أنني اهديت ما ينبغي له لسقت له ما في المثاني من الحمد
على ان ذا في ذاك تحصيل حاصل ولكن ذا جهدي وغاية ما عندي
بدا لاهدى بدر يجلي دجى العمى وحسبك بدراً من ظلام العمى يهدي
له نسب في آل احمد معرق كنظوم عقد الدر ناهيك من عقد
هم القوم ماز الله فيهم عباده فبين هدى منج وبين هوى مردي
هم القوم لطف الله يرجى بلطفهم وليس ينال الرشد الا من الرشد
اسرا يره تبدو سرائر قدسهم عليها ولا باء سر على الولد
تأخر عنهم لا لنقص يرده عن السبق حاشاه من النقص والرد
ولكن اتى من بعد ان قد تكاملوا عديداً وكم في ذاك من شرف عد
لكي لا يجوز الناس عن قصدهم به غلواً به والله يهدي الى القصد
وكي لا يقولوا وهو أهل لقولهم بعصمته لولا مجاوزة الحد
على انه لم يجتمع قط نائب لنا ومنوب عنه من سالف العهد
وكم فيه سراً للآله محجباً ابى الله ان يبدو فمن ذا له يبدي
به الغيبة الكبرى تجلى ظلامها واشرق في آفاقها قمر السعد
واعشب واديها ورقت رياضها واوراقها عادت لأغصانها الملد
وسار على اسم الله سيرة صاحب الزمان يبسط العدل والهدي للرشد
ولولا سمات عندنا قد تميزت بمعرفة المهدي قلنا هو المهدي
عطاء بلا من خلوص بلا رياً سحاب بلا رعد سخاء بلا وعد
حقايق يخفيها فتبدو وحسبها ظهوراً لها إن الآله لها مبدي
سما الزهد اعلا رتبة لانتسابه اليه فما في الزهد إذ ذاك من زهد
ولولا علوم بثها الاغتدى الورى بحالك ليل من دجى الجهل مسود
اغاض فسيح القول غامض كنهه فماذا عسى يبدي المقال بما يبدي

وكيف يحيط الواصفون بوصف من

له سؤدد عـــدّ يجلّ عن العدّ

وقالوا غلا في المدح فيه وعنفوا ولاموا لو ان اللوم في مثله يجدي

ولو انصفوني فيه قالوا مقصر ولا قصر في باعي ولكن ذا جهدي

ولو ان لي في كل عضو لمدحه لسان يبث الحمد قال له حمدي

تعالى به جدي وطالت به يدي وقام به حظي ودام به سعـــدي

شكراً لدهر قد سخا لي به فكم به من يد للدهر ظاهرة عندي

فمن مبلغ الأحياء عني انني بلغت به سؤلي ونلت به قصدي

وإني قد سيرت فيه شوارداً تجاوزن من قبلي واتعبن من بعدي

على انني لم اقض معشار حقه فيا ليت شعري ما اعتذاري الى المجد

سعى ليحج البيت والحج بيته فكم عاكف باد معيد انما مبدي

فلو كان يدري البيت من كان أمه إذاً أمه شوقاً ونم يأل من جهد

عساه اذا وافاه مستقبلا له يزيد له بالأين ما كان للنجد

وكرّ من الركن اليماني راجعاً الى جده اكرم بأحمد من جدّ

وقد بان في أرض الغري ظهوره لذلك قد ارخته [ظهر المهدي]

وقد قرض هذه القصيدة جماعة مبتغين مجاراتها منهم الشاعر الأعسم الشيخ محمد عليّ واليك قوله :

اعد ذكر من أهواه ان كنت ذاود فاني ارى ذكراه أحلى من الشهد

فما التذ سمعي قط من صوت منشد كما التذ من مدح به ذكر المهدي

يفوز الرضا فيه من الله بالرضا فما قاله حاشاه ميلا الى الرفد

أفاض علينا من بديع جواهر كأن لئاليها تناثر من عقد

ثناء وود لو نوفيه حقـــه فنكتبه بالنور في جبهة المجد

حوى مدح من تحيي القلوب بذكره وتشفي صدور المؤمنين ذوي الودّ

مدائح لو تتلى على قبر ميت لأنعشه إنشادها وهو في اللحد

اصابت محلا للمـــديح فزانها فيا سؤدداً يكسو الثناحلل الحمد

وفاقت كما فاق الذي اهديت له وجلت كما جل المحل عن الند

ووافت فما استوفت فكان إعتذارها بأن المزايا لايقفن على حدّ

وانى توفي حق من هو للعلى بمنزلة الكف المتمـــة للزند

به تتحلى المكرمات جميعها كما يتحلى موضع النحر بالعقد

به اعتز اهل الدين عاماً بأنه اشد على الاعدا من الصارم الهندي

وقام مقام الغائب المرتجى الذي يوازره من كلهم الناس في المهدي

امولاي ان يجهلك اهل العناد لم يضر وان الجهل صاحبه يردي

عمى امركم يبدو فيستأصل العدى ولا يقطع الصمصام مادام في الغمد

مدحتك مع علمي بأنك في غنى ولكن للمولى حقوقاً على العبـــد

واهديتها عذراء لولا حياؤها لقبلت الأقدام فضلا عن الأيدي

اتتك ترجي ان يكون قبولها رضاك فلا تخيبـــه وحاشاك بالرد

وللنحوي عند زيارته لموقد العسكريين في (سامراء) قوله :

أريحا فقد اودى بها السير والوخد وقولا لحادي العيس إيها فكم تحدو

طواها الطوى في كل فيفاء ماؤها سراب وبرد العيش في ظلها وقد

تحن الى نجـــد واعلام رامة وما رامة فيها مرام ولا نجد

وتلوي على بان الغوير ورنده ولا البان يلوي البين عنها ولا الرند

وتعطو الى مرج الحمى وغفاره وما بالحما والمرج وار لها زند

وتصبو الى هذا وذا عد على النوى وما هند تشفي ما اجنت ولا دعد

وتهفو إلى عمرو وسعد ضلالة وما عمرت عمرو ولا أسعدت سعد

« هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى »(١)

وما قصدها حيث اختلفنا هوى قصد

فعوجا فهـــذا السر من سر من رأي يلوح ففـــد تم الرجى وانتهى القصد

وهاتيك مابين السراب قبابهم فآونة تخفى وآونة تبـــدو

فعرج عليها حيث لاروض فضلها هشيم ولا ماء الندى عندها ثمد

ورد دارها المخضلة الربع بالندى تردجنة للوفد طاب بها الخلد

وزر حيث جبريل على الباب خادم لديها وميكال بأفنائها عبـــد

وطف حيث ماغير الملائك طائف يروح على من طاف فيها كما يغدو

وسل ماتشا من سيب نائلهم فما لسائلهم إلا بنيل المنى ردّ

هم القوم آثار المعارف منهم على جبهات الدهر مابرحت تبدو

هم علة الايجاد مبدى ومنتهى فما قبلهم قبـــل ولا بعدهم بعد

هم آل يسن الذين ضفى لهم من المجد برد ليس يسمو له برد

ربينا بنعماهم وقلنا بظلهم وعشنا بهم والعيش في ظلهم رغد

اليكم بني الزهراء أمت مغذة عراب المهاري والمسومة الجرد

(البيان)

---

(١) هذا الشطر من قصيدة لقدامى الشعراء